دروس من بور سعيد

بقلم رشيف خوري

عندما كنا نقول الامة العربية والقومية العربية ، اول عهدنا بالوعي السياسي ، كانت تحوم على كثير من الشفاه ابتسامات فيها التشاؤم والمرارة ، تلك ابتسامات المحبين اليائسين ، أو فيها الهزء والسخرية ، تلك ابتسامات الشامتين ، وفيها الرثاء والرحمة ، تلك ابتسامات المؤاسين وكلها ابتسامات على اختلاف بواعثها تقول : جيل جديد ، يترسل بالاحلام ويتشبث بالاوهام ، فما تكون هذه الامة العربية ، واين يكون أثر هذه القومية العربية ؟ ليس ثمة الا مادة بشرية خام عبث بها « الحلفاء » عبثا منكرا ، غروها باماني وحدة ووعود استقلال ليقدموا منها لحما للمدافع في محاربة الاتراك ، اخذوا منها دما واعطوا بعض زعمائها ذهبا ، ثم لم تكن النتيجة غير ما قاله شوقي في رثاء الحسين بن علي :

قد رجونا من الغنائم حظا ووردنا الوغى فكنا الغنائم !

على اننا كنا نحن نقول قول الواثقين : الامة العربية ، هي في طور نشأة مستحدثة ، القومية العربية هي في دور انطلاقة مستأنفة وجميع العلائم تدل على دبيب الحياة فيها دبيبا مجدداً ، فاما الهرم والشيخوخة ، فان الاستعمار هو الذي يهرم ويشيخ ، ودوله هي التي تضعف وتمشي في طريق الانهيار مبهوظة بثقل جرائمها الاستعمارية ، موقرة بعبء اسلحتها التي تتدجج بها متوهمة انها تكفيها للتفوق والسيطرة .

وما اكثر ما كانت الامة العربية تنتفض هنا او هناك ، وما اكثر ما كانت القومية العربية تستيقظ وتزأر ، فيلتمس المستعمرون السبيل الى تخديرها وترقيدها ، فاذا لم يجدوا الى ذلك سبيلا خاطبوها بلغة الرشاشات والمدافع . ذاقت الاسكندرية طعم قنابل الاسطول البريطاني ، في اواخر القرن التاسع عشر ، وذاقت دمشق قنابل المدفعية الفرنسية اكثر من مرة في الشطر الاول من القرن العشرين، ولا يحصى ابناء الشعب الذين ذاقوا رصاص المستعمرين او مأجوريهم في الشمال الافريقي ، او شبه الجزيرة العربية او بيروت او عمان او بغداد .

وفي كل مرة كانت الامة العربية والقومية العربية تسكن مكعومة او ترضى بايسر الحق ، وفي قلبها من اضطرارها الى السكون ، الم أقسى وادمى حزا من توحش المستعمرين ودناءة مكرهم .

لكنها في كل مرة كانت ترتد ، لتستجمع بصرا وعزما للوثبة الجديدة .

وفي كل مرة كان التفسخ في جدار الاستعمار يزداد عمقا وبروزا بفعل تناقضات الاستعمار الداخلية ، بالضربات لتي يكيلها المستعمرون بعضهم لبعض ، وبتعاظم حركات الانقلاب الاشتراكي وهزات التحرر الوطني . والاستعمار لا يفطن لما يتبدل في العالم ، ولا يعي اي ريح جديدة تهب في الدنيا ، واذا فطن ووعى من وجه ، اصابته الغفلة من وجوه ، وهي غفلة يبدو ان لا بد منها في كل نظام يشرف على ساعة النزع الاخير .

فلما كان العام الماضي ، وحدث في مثل هذا الشهر ما سمي بأزمة قناة السويس ، كانت دول الاستعمار الغربي ومن لف لفها ، لا تزال تنظر الى الامة العربية والقومية العربية نظرتها القديمة . بل كانت تنظر النظرة نفسها الى العالم والى مركزها فيه . « ما عسى ان تكون الامة العربية هذه ! ما عسى ان تكون القومية العربية ؟ اتراها اختلفت كثيرا عن تلك التي استثمرنا دمها في الحرب الكونية الاولى لقتال الاتراك وتمزيق امبراطوريتهم ؟ اتراها اختلفت عن تلك التي أخضعناها للوصايات والانتدابات والاحتلالات العسكرية ، وعللناها بالوعود ، او مزقنا تظاهراتها بالرصاص وارهبناها بالسجون وحبل المشانق ؟»

هكذا كان يتساءل المستعمرون الغربيون متهكمين ، ثم يمضون في التساؤل : السنا اسياد الدنيا ، تنفذ فيها اليوم ارادتنا المطلقة كما كانت نافذة بالامس ؟ ومن ذا الذي يستطيع ان يتصدى لنا اذا امطرنا مدينة صغيرة بضع قنابل « من باب اعطاء درس حسي في ان رحابة صدرنا تنتهي عن حدود »

ولكن المستعمرين فوجئوا ، وكل غافل يفاجأ ، فوجئوا بصمود بور سعيد ، المدينة الصغيرة التي لم تركع حين جرحت ، بل ثبتت واقفة لتغمس اصابعها في جراحها وتكتب عاليا على الواح الافق آيات الاستشهاد والبطولة ، فتهز ضمير العالم هزا رغم سباته العميق في كثير من الاحيان .

فوجئوا بالامة العربية ، بالقومية العربية ، تجمع قبضتها لتضربهم حيث تجد السبيل الى ضربهم، في مواضع حساسة تشلهم ، تقطع عنهم السائل الاسود الملون بلون ضمائرهم .

فوجئوا بمن ربوهم اصدقاء لهم في البلاد العربية يقولون لهم : ويحكم ، لقد اطلقتموها عاصفة تذرونا كما يذرى القشر والتبن اذا تجاسرنا أن نبارك أعمالكم !

وفوجيء المستعمرون حتى بموقف الشرفاء في شعوبهم (اتراهم كانوا يخالون شعوبهم قد اقفرت من الشرفاء ؟) فلم

يبق من لم يقل لهم : انكم تدفعون بنا الى الدمار ، أيها المجانين المغامرون !

وفوجئوا بامر آخر جديد خطير . فوجئوا بان ثمة جبارا ينتظر الساعة التي يخدمونه فيها بحماقتهم ، فيهب لكسب المعركة ، العسكرية بعدما اكسبوه المعركة السياسة، ويقولون لهم ارفعوا ايديكم ، والا كسرتها ! ولم يكن مازحا . والحمدلله ان الغباوة لم تبلغ بهم حتى ان يعتبروه مازحا ، او مهددا تهديدا فارغا ، فنكصوا على اعقابهم خاسئين خاسرين لم يغنموا من المقامرة الا اللعنات والعار .

وانتصرت بور سعيد . انتصرت الامة العربية والقومية العربية . وتنفست الدنيا جمعاء تنفس ارتياح لان السلم العالمية لم ينفجر بها البركان .

وكان انتصار بور سعيد اعظم وابعد من مجرد الظفر بتأميم قناة تملكها مصر ولا يمكن الا ان تملكها مصر .

كان انتصار بور سعيد برهانا منيرا على ان الامة العربية والقومية العربية هي اليوم غيرها في اواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين . هي اليوم كائن يحيا وينمو وتتضام اجزاؤه وتثبت خطاه وتستقيم . ومن ينظر اليها غير هذه النظرة فهو اعمى معصوبة عيناه بالظلام .

وكان انتصار بور سعيد درسا للمستعمرين ان العالم لم يبق ميدانهم وحدهم يسرحون فيه ويفسدون في الارض، وان الامة العربية والقومية العربية جازت في نشأتها المستأنفة دور السكوت عن حقوقها خوف ارهاب ، او استعظاما لتضحية .

وكان انتصار بور سعيد درسا للسوفيات ايضا ان الامة العربية والقومية العربية ليست لفظا يقال ، ولا هي مجرد « حرتقة بورجوازية » لمجرد انها ليست بروليتارية ولا شيوعية .

وكذلك كان انتصار بور سعيد شهادة حسية بان الحكم الادبي الذي يحكمه الضمير العالمي على المعتدين له الاثر الضخم في كتف ايديهم وقص مخالبهم .

واخيرا كان انتصار بور سعيد درسا للامة العربية والقومية العربية نفسها ان المستعمرين تمكن هزيمتهم ، وان الشعوب المغصوبة حقوقها اذا وقفت صامدة في سبيل هذه الحقوق ، لا تتخاذل ولا تتقاعس عن تضحية ، فانها واجدة اصدقاء يقبلون على نصرتها لانهم يرون لصداقتها قيمة ومعنى ، وواجدة ايضا اعداء ان لم يتعلموا حبها تعلموا احترامها مكرهين .

ستظل بور سعيد صفحة خالدة في كتاب التحرر العربي الحديث . صفحة ملؤها الروعة الشعرية ، وملؤها الفائدة العملية في تسديد خطى الامم على طريق السيادة والكرامة .

ستظل بور سعيد اكليلا من الغار لا ننام عليه ، وانما يحفزنا الى انطلاق جديد .

رئيف خوري

تاريخ
الفلسفة العربية
بقلم
هنا الفاخوري
رئيس كلية لبنان
خليل الجر
دكتور في الفلسفة
كتاب جديد يتناول بالبحث الرصين ، والتحليل الوافي ، جذور الفلسفة العربية ، وأهم مدارسها وأشهر رجالها بالاستناد الى أوثق المصادر ، والى النصوص المحققة
يطلب من
دار المعارف . بيروت
بناية العسيلي السور ص.ب ٢٦٧٦ تلفون ٢٢٥٧٤
ومن جميع المكتبات الشهيرة

مجلة سندباد : مجلة الاولاد في جميع البلاد

تطلب من جميع الباعة والمكتبات الشهيرة